

دور اللغة العربية في علوم الشريعة الإسلامية

القلم : الحاج البيهقي أنس، م أ*

التجريد

وقد شرف الله تعالى اللغة العربية وخصها بأمرين عظيمين حيث أنزل بها كتابه ولصطفى رسوله من أهلها ومن الناطقين بها فكانت وعاء لأصلي الإسلام العظيمين: القرآن والسنة فلا يمكن للمسلم أن يؤدي العبادات والواجبات كلها على الوجه الصحيح ما لم يكن ذا معرفة صحيحة قوية بالدين والقرآن. فمادامت اللغة العربية قد وسعت كتاب الله بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حتى أعجز أهل اللسان، فثبتت ضرورة ألا يفهمه إلا من يعرف العربية معرفة تمكنه من فهم دقائق معانيه. ومادام القرآن الكريم هو مادة الإسلام، حتى لا تخرج عن الخط الذي رسمه القرآن، والغاية التي يهدف إليها، وبيان ذلك من خلال، إطار عام هو: أهمية اللغة العربية في دراسة الشريعة الإسلامية.

مفتاح الكلام : أهمية اللغة العربية، علوم الشريعة، تلازم بينهما

المقدمة

ولصطفى رسوله من أهلها ومن الناطقين بها

فكانت وعاء لأصلي الإسلام العظيمين:
القرآن والسنة، قالى اعالى: إن أنزلناه قرآنا
عربيا لعلكم تعقلون" وكذلك أنزلناه قرآنا
عربيا"

واللغة العربية اليوم لا تمثل لغة علمية
تكنولوجية مستقلة، إلا أن أهمية اللغات
تقاس دائما بعدة مقاييس وتأتى اللغة العربية

من أعظم ما أنعم الله به على الإنسان نعمة
اللغة، فيها يتميز على سائر من سواه، وبها
ساد فى الكون، ووبواسطتها يعبر عن
مشاعره، وأفكاره وما يعتمل فى نفسه، كما
ذكره ابن جنى فى كتابه

وقد شرف الله تعالى اللغة العربية
وخصها بأمرين عظيمين حيث أنزل بها كتابه

*Penulis adalah Lektor dalam Mata Kuliah Bahasa Arab STAIN Batusangkar

واللغة العربية تمثل حلقة لاغنى عنها في سلسلة الحضارة البشرية والأدب العربي من الأدب العالمية الحية عمرا وأعزرها إنتاجا إذا قيس بالأدب الأوربية الحية المعروفة أو القديمة المنقطعة.

كما أن اللغة العربية من إحدى اللغات العالمية الكبرى المعتمدة في هيئة الأمم المتحدة منذ سنة 1973 ميلادية وفي منظمة اليونسكو العالمية.

لهذا السبب - وغيرها الكثير - عدت اللغة العربية من اللغات المهمة يوصفها لغة دين وحضارة وفكر وأدب وحياة.

فقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذى عوج. ففتح به قلوبا غلغا وأعينا عميا وآذانا صما (كتاب أنزلناه إليك مباركا ليدبروا آيته، وليتذكر اولو الألباب).

فهو مادة الإسلام الأولى، ومعينه الأصيل، لا يشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه (ابن كثير: 10-11). وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين (الشعراء : 192-195).

في مجموعات اللغات العالمية ذات أهمية الكبرى.

فلا يمكن للمسلم أن يؤدي العبادات والواجبات كلها على الوجه الصحيح ما لم يكن ذامعرفة صحيحة قوية بالدين والقرآن وهو كتاب الله لغته العربية وستظل العربية مفتاحا لا بد من وجوده للدخول على عالم القرآن وفهمه بصورة صحيحة، وفي الصلاة فإن المسلم يقرأ الفاتحة وبعض القرآن بالعربية.

كما أن العلوم الإسلامية من حديث وفقه وتوحيد وأصول كلها مدونة باللغة العربية، وإن كان كثير من أهل العلم ليسوا عربيا.

ولفهم هذا البناء الإسلامى الفكرى ستبقى اللغة العربية لا بد منها لذلك كله حتى يمكننا ترجمة هذا التراث الضخم وفهمه.

كما أن اللغة العربية صارت وسيلة التعبير لشعوب كثيرة دخلت دائرة الإسلام كالعرب والفرس وسكان الشام ومصر وشمال أفريقيا وكثير من دول آسيا وأوربا فاللغة - حيثئذ - تمثل فكرا عظيما لا بد من فهمه لإدراك الحضارة الإنسانية.

معرفة تمكنه من فهم دقائق معانيه. ومادام القرآن الكريم هو مادة الإسلام ، حتى لا تخرج عن الخط الذي رسمه القرآن، والغاية التي يهدف إليها، وبيان ذلك من خلال، إطار عام هو دور اللغة العربية في علوم الشريعة الإسلامية .

1. التلازم بين اللغة العربية والقرآن الكريم

حين نتحدث عن اللغة العربية نعلم أنها القالب الذي وسع القرآن الكريم، وحين نقر القرآن الكريم نرى أنه بمثابة الروح لهذه اللغة، فهما كالروح والجسد، إذ التلازم بينهما أمر محقق لا مفر منه. وبيان لهذا التلازم، وتنسيقا للمبحث فيه، أرى أن جوانب التلازم هنا ثلاثة هي :
أ - جانب القرآنية.

أثناء تلاوتنا لكتاب الله عز وجل، نجد آيات كثيرة تصف القرآن بأنه عربي، وأنه تعالى أنزله بلسان عربي مبين، إظهارا للغة القرآن الكريم، وتأكيدا على التلازم التام بينه وبين اللغة العربية، منها : (إن أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (يوسف : 2) وآيات أخرى (الرعد : 37، النحل : 103، طه : 113)

فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وجاء بأساليبه البيانية ونظمه البديع، وبلاغته العظيمة، حيث أعجز أقحاح العرب عن محاكاته او مضاهاته، فكان حقا على من أراد تفهم معانيه، وإدراك مرامييه، أن يكون على جانب كبير من التمكن من اللغة العربية، وإلا، لا يقدر على شئ من ذلك (خالد عبد الرحمن : 82) ففاقد الشئ لا يعطيه.

ومعلوم قول شيخ الإسلام ابن تيمية : والعلم، إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا إما مزيف كردود، وإما موقوف، لا يعلم أنه بمرج ولا منقود (ابن تيمية : 43)

والقرآن الكريم نقل مصدق عن معصوم، ودليل لقول الحق معلوم، ولكن كيف يفهم هذا؟ وبأي لسان يعلم؟ إنه اللسان العربي، واللغة التي وسعته، وقد استنطق حافظ إبراهيم قائلة : وسعت كتاب الله لفظا وغاية* وما ضقت عن أي به وعظات .

فمادامت اللغة العربية قد وسعت كتاب الله بأعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حتى أعجز أهل اللسان، فيثبت ضرورة ألا يفهمه إلا من يعرف العربية

ب - جانب الفهم المعاني القرآن الكريم
 المعنى الحقيقي للمفهوم الإسلامي، لا
 يتحقق إلا على ضوء ما قرره علماء الأمة
 في الأصول والتفسير وغيرها، من أن المفسر
 تهتد لا بد أن يكون على علم ومعرفة
 بلغة العرب، إذ لا يفهم القرآن بغير لغة
 العرب، لأن الحكم على الشيء فرع عن
 تصوره، فلا يتم الفهم للقرآن إلا بالتصور
 الكامل لمعانيه باللسان الذي نزل فيه.
 لذا نلاحظ أن علماءنا يركزون على
 هذا الجانب حتى لا يبعد الإنسان عن المعنى
 الحقيقي للمفهوم الإسلامي، أو المصطلح
 القرآني. فهذا الزركشي يقول : إنما يفهم
 بعض معانيه، ويطلع على أسراره ومبانيه
 من قوى نظره، واتسع مجاله في الفكر
 وتدبره. وامتد باعه، ورقت طباعه، وامتد في
 فنون الأدب، وأحاط بلغة العرب (الزركشي
 : 165). وأخرج ابو عبيد عن يحيى ابن
 عتيق قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد،
 يتعلم العربية يلتمس بها حسن
 طق، ويقوم قراءته بها، قال : حسن يا
 ابن أخي فتعلمها، فإن الرجل يقرأ الآية،
 فيعنى بوجهها، (يعجز عن فهم المراد منها)
 فيهلك فيها (خالد العك : 83). وقال
 لحاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم

فهو قرآن، وهو عربي، لا إنفكاك
 بين قرآنيته ، إذ لو انفكت عربيته بالترجمة لم
 يعد قرآنا، كما لو انفكت قرآنيته بالتفسير
 العربي لا يسمى قرآنا أيضا. وما أروع تعبير
 الدكتور مازن المبارك في ذلك حيث يقول :
 هل عرف العالم إسلاما بلا قرآن ؟ وهل
 عرف العالم قرآنا بغير العربية ؟ إن ارتباط
 كتاب مقدس بلغة بعينها - كارتباط القرآن
 باللغة العربية - أمر لم نعرفه لغير هذا
 الدين، ولغير تلك اللغة . وإذا كان غير
 القرآن من الكتب المقدسة - كالإنجيل مثلا
 - قد ترجم الى لغات كثيرة، وبقي على ما
 هو عليه من كونه كتابا تعبديا مقدسا، فإن
 القرآن الكريم قرآن بلفظه ونصه (صبح
 الصالح : 86-87)). وهو معنى قول
 الرازي : والسر في ذلك أن القرآن العربي
 كما أنه تطلب قراءته لمعناه، كذلك تطلب
 قرائته لأجل لفظه (الرازي : 217) -
 ويضيف الدكتور مازن المبارك، وإذا كانت
 لدى غير المسلمين صلوات تتلى بغير لغة
 الكتاب المقدس فإن الحكم الشرعي في
 الإسلام ، أنه لا صلاة بغير اللفظ العربي
 للقرآن، ثم خلص الى القول بأن الارتباط
 بين العربية والقرآن أمر واقع وفرض مقرر
 (الزركشي : 156)

مكروه (ابن تيمية : 106) ويضيف :
وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين،
ومعرفتها، فرض واجب، فإن فهم الكتاب
زالينة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة
العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو
واجب.

يلاحظ أن ابن التيمية اعطى
حكّمين في عبارتيه السابقتين خلاصتهما أن
تعلم اللغة العربية فرض واجب لفهم الكتاب
والسنة ومن تعلمها يكره له اعتياد
الخطاب بغيرها.

ج- جانب عالمية دعوة القرآن

عرفنا فيما سبق كيف كان التركيز
على التلازم بين عربية القرآن، وقرآنيته معا
نص عنه تكرار الإشادة بهذا اللسان،
والإرتفاع به، حتى اعتبره ابن تيمية شعار
الإسلام، ومع هذا نجد في الجانب
الأخريصرح بعالمية دعوته، رفضاً للتمييز
النعصري ، قال تعالى : (وما أرسلناك إلا
للناس بشيراً ونذيراً) (سبا : 28) وقال
أيضاً (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم) (الحجرات :
13) مما يدعو للتساؤل : هل هناك
تعارض بين هذين الجانبين ؟ وكيف يمكن
التوفيق بينهما ؟

الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذ لم يكن
عارفاً بلغات العرب (محمود محمد : 19)
وروى البيهقي في الشعب عن مالك
رضي الله عنه أنه قال : لا أوتى برجل غير
عالم بلغة العرب ، يفسر كتاب الله إلا
جعلته نكالا (خالد العك : 80). وقمة
الصراحة في هذا الأمر نجدها عند الشاطبي
حيث يقول : من أراد تفهم القرآن فمن
جهة لسا العرب يفهم، ولا سبيل الى تطلب
فهمه من غير هذه الجهة (الشاطبي :
42). وقد جرى مثله على لسان محمد
عبده حيث قال : فهم كتاب الله تعالى
يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة
الكلام البليغ منها .

ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد ، بل نجد
شيخ الإسلام الشيخ ابن تيمية يرتفع باللغة
العربية فيجعلها شعار الإسلام، ويقرر كراهة
من يعتاد الخطاب بغيرها، كونه يبعد عن
ممارسة اللغة، مما يرتكب عليه ضعف الفهم
لكلام الله، فيقول : وأما اعتياد الخطاب
بغير العربية - التي هي شعار الإسلام ولغة
القرآن - حتى يصير ذلك عادة للمصر
وأهله ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه ،
ولأهل السوق، أو للأمرء ، أو لأهل
الديوان ، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا

كلمات عربية كثيرة في لغات عديدة إسلامية وغير إسلامية (د. عارف : 43) إضافة على ما ذكرناه آنفا من كلام ابن تيمية من وجوب تعلم اللغة العربية بالنسبة للمسلمين جميعا، واستنادا الى قوله تعالى : (كتاب أنزلناه اليك مباركا ليدبرا آياته) والذي يتضمن أمرا يتعلم اللغة العربية ، لأن التدبر هو الفهم، ولا يكون إلا بمعرفة العربية، وذلك يتطلب بالطبع متابعتها **سأتمها. والتدبر مطلوب من الجميع،** والفهم هدف لا بد أن يحققه جميع المسلمين، فوحدة الفهم عامل مساعد لتوحيد الأمة ، وهو هدف عالمي، يشير الى عالمية اللغة العربية، يقول ابن تيمية : لم يكن سبيل الى ضبط الدين، ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين (ابن تيمية : 162) وما دام الدين عالميا فاللسان عالمي أيضا.

وخلاصة الأمر أن مثل اللغة العربية بالنسبة للقرآن الكريم كمثل وعاء زجاجي سكب فيه ماء، فكان يرى من خلاله **وضوحا، وبهجة وجمالا بحيث لو وضع في** إناء غير زجاجي لا تسم بالغموض وعدم الوضوح ، والله يقول : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) (القمر : 17)

ما من ريب أن تنزيل القرآن باللسان العربي كان يوحى الى العرب بكثير من الإعترلز والفخر، كما يوحى الى غيرهم بكثير من التوقير والتكريم، لكل ما هو عربي، لسانا وبيانا، وحسبا ومحبدا، وموقعا ومولدا، ولا سيما حين يقرن القرآن اللسان العربي بصفة البيان، أو يقول : (غير ذى عوج) ايماء الى صفاء هذا اللسان وعالميته، اذ القرآن دعامة الوحدة بين العربية والإسلام. (د. الصالح : 85)

هذا وإن استهلال بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة ، يشير الى أمرين هامين:

أحدهما : بيان موطن الإعجاز في القرآن الكريم، اذ يظهر فيه جانب التحدى لإقحاح العرب ، وفرسان البلاغة والفصاحة، للإتيان بمثله، وعجزهم الواضح عن ذلك. والثاني : بيان أن هذا القرآن الذى هو عالمي الدعوة، لا يسعه الا هذه الحروف التى يتكون منها الكلام العربى، مما يعنى أن اللغة العربية لغة عالمية، غير مقتصرة على الناطقين بها ، تبعا لعالمية دعوة القرآن.

ما أنها ضرورية لدراسة لغات، وثقافات عالمية مختلفة، كالإسبانية، والأردية، والماليزية، والإندونيسية وغيرها، اذ دخلت

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن اسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، بيروت: دار المعرفة ، دون السنة
- ابن العربي، احكام القرآن، مصر: الحلبي ، 1959 م
- ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دمشق: عطارق، 1939 هجرية
- ابن كثير، تفسير ابن كثير، مطبعة الإستقامة: القاهرة، 1373 هجرية
- بدر الدين الزركشى، البرهان في علوم القرآن، مصر: الحلبي، 1957 م
- جلال الدين الشيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصر : مطبعة الأزهر، 1318 هـ
- صيح الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، بيروت: دار العلوم، 1977 م